

المعرفة المركزية الإسلامية

واللغة وسنتريزم الإغريقو - لاتيني

الدكتور :

عشراتي سليمان

جامعة وهران * الجزائر *



قبل حركة الإسلام الفتحية كان العالم القديم ، المتشكل من حضارات روما ، ومصر ، وفارس ، والحبشة ، وسبأ ، والهند ، يرجع في ثقافته إلى معرفة مركزية إغريقو -لاتينية ...

فلقد اجتاحت الفلسفة اليونانية بلاد الهلال الخصيب وماتا خمها من أقطار وامبراطوريات ، من خلال فتوح الاسكندر الكبير ، حيث أضحت تعاليم افلاطون وأرسطو من أطر التفكير النخبوى المعقلن في كثير من هذه البلاد

وقد تعززت لتلك التعاليم وجاهتها ، بعد هيمنة روما على البلاد المتوسطة ، بما فيها بلاد اليونان ، إذ تشكلت شجرة المعرفة من المنتج الفلسفي اليوناني (أفلاطون - أرسطو) ، ومن فقاها الرومان ، الورثة لتراث أسلافهم اليونان ، من تعاليم المسيحية ، بعد أن أضحت الكنيسة اليونانية ، ثم الرومانية الوصي الروحي على تعاليم المسيح ، وتشكلت أيضا من لقاحات ثقافية ظاهرة أو مضمرة تحققت لهذه المعرفة المحورية من صلتها بثقافات الأمم الأخرى البربرية ، والقبطية ، والفارسية ، والهندية والصينية ... لتتأصل معرفة مركزية إغريقو-لاتينية ، جعلت تقامس سلطتها في حقول العقلنة والمباحكات التجريدية ، بشكل مرجعي ، وبصدارة لعبت في تعزيزها عوامل التسلط ، والتخضيع المادي ، الاحتلالي ، دورا لا ينكر...

لقد تعالت المعرفة الإغريقو-لاتينية ، على ماسواها من معارف الناس ، بوازع اعتدادي ، جعلها تتجاهل حتى المكتسبات الفكرية والروحية التي ظل المتنورون من مختلف الحضارات ، والأمم يرفدون بها الفكر اللوغوسنتريزم ، شرحا ، وتوسيعا وتقويما ، وتحويرا .

ولقد كان على الثقافة العربية الاسلامية أن تواجه هيمنة هذه المعرفة المركزية الإغريقو-لاتينية ، لتوطد فضاءها المدني ، والحضارى بمعرفة مؤصلة ، بحيث لا تتحجم في صدفه الخصوصية ، ولا تتورم في عتو موج العمومية ، بل تتوازن ، وتتنز في اعتدال

يتناسب مع روح عقيدتها الوسطية .

ومن البديهي أن الخروج إلى العالمين بكتاب ناجز ، منزل ، مضامينه مفتوحة على مشاكل الأفراد والجماعات ، تتبناها بروح أخلاقية لاعرقية فيها ، جعلاً الأقسام والشعوب حتى تلك التي قهرت للدخول في الحظيرة ، تدس في الرسالة المحمودة إليها ، تخريجات جذرية وسماحة لم تعدها في تجارب الفتح ، كما عرفت في العالم القديم ، بل لقد تهيأت الثورة على الفاتحين في بعض المناطق المفتوحة ، بفعل قتل تعاليم الإسلام ذاتها - كما حدث في بلاد المغرب مثلاً ، حينما انتفض المسلمون البربر على حكامهم ، دفعاً لضم الابتزاز الخراجي الذي كان يجعل منهم ذميين -

لقد جاء الكتاب المنزل / القرآن ، شريعة عقدية ، وفكرية مثبتة ، ومنزهة ، ومتسامية عن الوضع الانساني القاصر ، فانشغلت الجماعات ، والمجتمعات في استعاب مادته أولاً بالتلقي ، ثم بالتوليد ، ثم بالوضع والاقتراض أو الاجتهاد في إطاره أو من خارج إطاره (كما كان شأن الزندقة مثلاً) .

فالإطار القرآني (أو السنة النبوية) كان القاعدة التي سيشاد عليها صرح الثقافة العربية الإسلامية ، بطابعها العالمي المفتوح .

لقد كانت المعادلة الفكرية التي باشرها الإسلام عالمية ، مكونة من :

- المحصول الأساس --- العربي : القرآن وثقافة العرب الجاهلية ومقومها

المركزي ، الشعري والخطابة

- المحصول المضاف --- العالمي : الشقافات المتعددة المحيطة بالجزيرة ،

والمتداعية إليها .

فالمشهد الثقافي الذي أنجزه الفتح ، قد تمحور حول موضوع أصل ، ومحمول مجلوب ومندمج ، ولقد حققت المركزية المعرفية ليس فقط بروح الرسالة --- الإسلام ، ولكن بشكلها أيضاً --- اللغة العربية ، فالمعرفة المركزية الإسلامية كانت نواتها عقيدة ، إنسانية الإطار ، عربية اللسان

ولقد كان حتماً أن تنطبع هذه المعرفة المركزية الإسلامية بخصوصيات اللسان الذي حملها .. أو الذي انصهرت فيه .

وإنه لطبيعي ، والحال هذه ، أن ترتدي معيارية اللسان إلى المعطى الشعري ،
لمامثله الشعر في حياة الأميين ، من شرط تواصلتي ، توصيلي ، شفاهي ، تجسدت فيه
على نحو ماوصفات الكتاب ، والكتابة ، بيد أن السماع كان وسيلته ، وهو ماصاغ
المقول العربي ، (أو المنطوق) صياغة خطابية ، الفكر فيها حسي ، جرمي حنجري ...
وليس اعتباطا أن تكون عملية تحجر المعلقات ، وتعليقها ، إجراء يعقب مراسيمية
الانتخاب والاقتناء التي كان السماع مظهرها الحيوي --- لإنشاد .

لقد مثل الشعر أدب الأمة وعلمها ، وزمام تاريخيتها ، وقد كان مادة ثقافتها
التي استوعبت مقومات الجنس ، والحضارة الصحراوية ...

وكان الشعر تراثا مسموعا ... فاحتفاليته كانت صوتية لا حرفية ، وذاك كان
شأن النص المنزل --- القرآن العظيم ... إذ ظل يلبس الصدور ، والأفئدة ،
تتنساقله الحواظ ، وتنشره المشافهات ، ولم يودع المصحف إلا في وقت أعقب
رحيل النبي (صلى الله عليه وسلم) . من هنا كانت المشافهة والتوصيل الصوتي من
مظاهر الخطاب العربي ، أو أقل من سمات الثقافة العربية كلية ... هذه الثقافة التي
لم تباشر الحرفية إلا في خضم المفاعلة الكبرى التي تأصلت فيها عملية المركزية المعرفية
في مدينة الإسلام فالنطق أو التلفظ يعد أصلا في المعرفة العربية ، وهذه الأصلية
تستمد صيغتها ، من طبيعة المقول الشعري ، المنشد / المغنى ، أو هي تطبعه
بخصوصياتها الأدائية المورفولوجية على الأحرى ، وذلك استخلاص جوهر في
تشكيل المناظرة التي ننوي بناءها ونحن نشخص ملامح الثقافة الإسلامية . أو المعرفة
المركزية التي أنتجتها مدينة الإسلام .. على أنه لا بد لنا من إلقاء نظرة حول ماهية
الإغريقو-لاتيني :

محددات اللوغوس الاغريقولا تيني :

ظلت المعرفة في البلاد المطلة على الحوض المتوسطي ، وفي المناطق المجاورة لها ،
ترتكز ، وخلال أمد قبل الميلاد ، على محصلة الفكر الإغريقي - لاتيني .
لقد شكلت فلسفة أفلاطون ، وأرسطو ، وتوليداتهما الأساس التمهيدية ،
والتأصيلي لكل افتراض معرفي ينشد الوجهة ، والمعقولية بين أهل الفكر ، والثقافة

في هذه البلاد .

لقد تهيأ للإغريق من خلال صفوة معلميه منهج تفكيري واجه الحيرة الوجودية للانسان ، بوضع التصور الفلسفي الشمولي ، بافتراضاته وتوجيهاته التي ربطت بين الغيب والواقع ، واستخدمت محاياثات العقل في تسديد رؤاها وفي الإجابة عن التساؤلات الجذرية التي ظلت تساور الانسان ، لم جبلت عليه روحه من قلق وفضول وظمياً إلى العرفان ...

ولقد حملت الفتوح والحروب اليونانية ، مبادئ الفلسفة الاغريقية إلى البلاد التي وطنتها ، وإلى الحضارات التي تفاعلت معها ، وحين تمكنت روما من قهر بلاد اليونان ، عملت على استثمار المرسود المعرفي الإغريقي ، في توليدات وإضافات فكرية كان العقل اللاتيني يصنع بها صرح ثقافته الامبراطورية المتغلبة على العالم القديم يومذاك ..

لقد أضحت المسلمات المعرفية الإغريقو لاتينية قبل الميلاد ، وبعده ، مرجعية ومادة محصنة ، تعاطتها الأوساط النيرة في حضارات الشرق الوسيط ، سواء في الاسكندرية أو في حران ، أو في الرها أو أنطاكية أو نيسابور أو في ماعداها من الحواظر الواقعة تحت النفوذ في تلك العصور ، أو المحتكة به .

لقد تأسست المعرفة الاغريقو لاتينية على تزاوج عقلاني شعري ، تأثل في تراث أفلاطون ، وأرسطو ، وأتباعهما ، من خلال شمولية المنظومة الفكرية التي عالجوها (فلسفة - شعر - اجتماع - فنون - سياسة - علوم ...) وازدادت أهمية هذا التراث أو قيمته المعرفية ، حينما تهيأ له من إمكانات التداول والمعالجة العملية ، والواسعة بين الأمم ، فالتقنين الروماني (الجستينياني مثلاً) وكذا الخطابة وسائر المهارات الفنية والأدبية الرومانية ، سواء ماتم منها في الحاضرة (روما) أو ماكان ينجز في الأقاليم الخاضعة لها ، أو المتقاطعة معها ، ، إنما كان يرتد ببعض مقوماته المعرفية أو المنهجية إلى المحك الأرسطي ، الذائع أو المتربخ في المحافل التعليمية (المتنورة) ، أو المنفتحة على العقلنة . وإن تعاليم القديس البربري أغوسطين مثلاً ، وهو أحد اللوغوسنترين اللاتينيين ، لتتحصف بروح فكرية تتجانس مع المنطق الأرسطي ، وبأخلاقيتها العقلنة ،

وبرؤيتها البنائية المتناسكة ..

فالتفاعل المعرفي الواسع ، والمتعدد المصادر الثقافية ، أعطى للوغوس الإغريقو-لاتيني وجاهة، إذ أضحي بخاصيته العقلية البرهانية ، إطارا يستوعب المعطيات المعرفية، ويصقلها بمنهاجه ويوصلها لذاته ، أولا نيته الثقافية .. لقد أضحي المنطق (كما يقول هوسرل ، هو اللوغوس الذي ينتج في التاريخ) وهو ليس شيئا خارج التاريخ بما أنه خطاب- وبما أنه معنى) فهو منهج أو منظور ينظم المعرفة ، ويولدها ويهجن أجناسها ، قصد تمثيلها ، وابتلاعها ، أو ضمها إلى موصود هويته الفكرية ...

لم ينبذ أفلاطون الشعر لما كان يجد له من طبيعته استغوائية، تنحرف بالانسان عن الفضيلة ، ولكن نبذه لكون الشعر يحرر في النفس قوى انفعالية وحسية ، لا تهيأ للمرء معها أن يركز عقله، وأن يفكر بموضوعية ومنطق .

وإذا كانت الكلمة المفلوطة عند أفلاطون ، هي الأثر الحسي الأوصل بالجواهر أو بالمثل، فإن الكلمة المتكوية ، وإن ظلت رديفا للنفسي أو مجرد نسخة من الأصل فإنها مع ذلك نالت اعتبارا في العرف اللوغوستري ، فافلاطون، وارسطو بخلاف سقراط أودعا فكرهما (الكتيب) إملاء ، أو تحرير ..

والديانة الانجليزية اللوغوسية (في البدء كانت الكلمة) قد جعلت من الكتاب (livre) مناط تعاليم الرب وسوف تضيئ الاسطورة معنى السحري ، والكميائي ، والبلسمي على فعل الكتابة ، لما يتهيأ للكتابة ، بطبيعتها القناعية الإقناعية الغريبة ، من صفات هي ألصق بأحوال الهرمسية ، والفنوصية ، ويرموز الميثولوجيا .. «فاللغة المكتوبة تهدف وباقتصاد ، إلى ترجمة مفاهيم حقيرة ، لكنها دقيقة ، حيث وصفها الخطي يضمن لها الفاعلية» .

وسيكون اللوغس نفسه ، في المباحث الفقه -لغوية الغريبة ، المنطلق الذي تتحدد في ضوئه لتصورات اللسانية ، واللغوية. فالكلمة في العرف الكلاسيكي الغربي هي دال، ومدلول وسياق .. وواضح أن التناظر العددي ، أو التفكيكي في هذا التفرع الثلاثي ، فكر الأيقونة بمحدداتها الثلاثة ، الأب ، الإبن ، الروح القدس .
وحين سيختزل سوسور الماهية اللفظية في بنية ثنائية ، دال ومدلول ، فإن مفهوم

الواحدية : الأب مجسد في روح الابن أو في روح الأب ، يظل الإحالة الميتافيزيقية التي تسند على نحو لاشعوري أو شعوري تلك النظرة السوسورية .

لقد أتاح الشرط المنطقي لشفافة اللغوس أن تعوض عن جفاف تصوراتها ، أحاديته ، بالمنزع الجدلي التقليبي الذي مكن للفكر اللوغوسنتري من أن يعدد الطرح ، وينوع محصلات الفرضية الواحدة بفضل تحوير زاوية الرؤية ، وقلب المواقع أو الحدود ، خلوصا إلى النتائج ..

بل لقد أقام تحريديته على تلك الأهمية التي أعطاها للشيولوجيا ، إذ قرأ فيها ، مسلمات عقلية بنى عليها فرضياته العلمية ، وحقوقا معرفية (علم النفس - الانتروبولوجيا - اللسانيات ..)

لقد مثل تراث الأسلاف (إغريق... لاتين) بالقياس إلى الفكر اللوغوسنتري ، خطايا عامرا بالتجليات ، يضاهي تماما ماهي عليه تجليات الطبيعة ... لقد أعطى القدماء تأويلات ما علينا إلا أن نتقبلها ، فتراثهم هو بعد من أبعاد الطبيعة ذاتها ، إنه فضاء للتأويل فالمعرفة في المنظور اللوغوسنتري ، هي الحضور ، أو هي الهيمنة .

وأن الروح ، أو ayché التي تجسدها الكلمة Phoné ، هي القوة النافذة ، والسلطان المكين ، أو هي مظهر التسلط الذي تتميز به التعاليم الحق أو العلوية ... وإذا كان سقراط قد أكد الشقاء الذي يعانيه اللوغوس ، حين يتمظهر في فعل الكتابة .

فلأنه كان يؤمن بجدوى المباشر الديداكتيكية (الديالكتيكية) التي يتم عبرها إملاء الحقيقة بالخطاب الصائت وجها لوجه ...

فاللوغوس ظل يمثل تلك الحقيقة التي يمتلكها ، أو يزعم امتلاكها السفسطائيون والخطباء ، في الحضارة اليونانية ، من أجل إقرار آرائهم .. وكانت في ذات الوقت فنا وأداة ..

لقد اتهم أغاثون سقراط ، بأنه حاول سحره ، إذ السخر السقراطي يعمل بواسطة اللوغوس ، دون آلة «فيما يخصك أنت ، فأنتك لا تختلف عنه إلا كونك تؤثر ذات التأثير بدون آلة وبكلمات لا يصاحبها شيء» .

فالفا عليه التأثيرية هي التي جعلت التقاليد الإغريقية تعطي للكلمة رجاتها ، وسيظل التمييز بين الملفوظ ، والمكتوب قائما في كل منعطف ثوري معرفي تسجله مسيرة الفكر الغربي ..

ومع النهضة وانتشارا وسائل الطبع ، كان على اللوغروس أن ينتقل إلى طور معرفي آخر ، بعد أن استنزفت الاتباعية والتأويلية المحتذية للمنطق اليقيني قواه .. لقد كان على العقل أن يدخل رحاب التجديد من أبواب الشك ، والتجريب ، وتحول الأثر المعرفي يتقصى في الاستقراء الدلالي تخريجاته فالدلالة تخلت عن وظيفة الحضور والتمثيل ، لتتولى وظيفة الشغور والغياب .

لقد كان (ارابليه) يتطاع إلى العصر الذي تنعدم فيه المخطوطات والمكتوبات ، لأنه كان شغوفا بتخييل إبداع ، وآداب لاقمت بصلة إلى الأعراف الأدبية الخرافية ، وسيكون روسو بنزعته التحررية ، الفطرية من دعاة التعليم الطبيعي ، التلقائي ، البعيد عن الصنعة ، النفاق ، والاستدراج الشعري ، ولم تكن الكتابة تحطي عنده بالاعتبار إلا في ضوء ما يتهيا بها للانسان من فرص تعبيرية ، قد تكون ضرورة لاستوائه ، واكتمال شخصيته ... وسيقطع دي سوسور بزيف المكتوب إزاء الملفوظ واصطناعيته ، يقول :

«إن الكتابة تقيم بيننا وبين اللغة حجابا يمنعنا من رؤيتها كما هي ، وذلك أن الكتابة ليست ثوبا عاديا تلبسه اللغة ، بل هي قناع / خداع تنكر فيه .
على أن الكتابة قد ظلت الشاهد الحسي على أطوار الارتقاء العقلي والمدني الذي حققه الانسان ، وسجلت التقنية الخرافية في تاريخ الحضارات الكبرى الانسان ، مراحل وأشواط تفاوت فيها النضج الفكري الانساني في زحفه نحو تأصيل معرفة يضحي بها طرفا فاعلا في الكون ، وأعارها الانسان من الاهمية ما جعل قيمة المكتوب ترجع قيمة الملفوظ ، فالأثر الحرفي من حيث ارتباطه بالديني ، أو بالمنزول ، قد اكتسب صبغة القداسة ..

كما أن نزعة النفاذ قد جعلت روح المكتوب تتعزز باطراد ، بما يعطيها قوة الحضور .. هنا كانت سحريتها ، أو تسلطها وهيمنتها ... واللوغوس حين تلبس الغرافيك .

فلا تله اضطر الى أن يغطي فضاءات خرجت عن نطاق المدينة ، فالديداكتيك وأسلوب
المحاورة الشفاهية الذي كان وسيلة التعليم في أثينا / المدينة . وحواسر اليونان
الأخرى ، أضخى في حاجة إلى أن يتحول في صورة حرفية ، لينتهي الى أفاق أرحب ،
وأهم أكثر اختلافاً وكان حتماً أن تكون اللاتينية هي لسان اللوغوس ، اذ هي لغة
الكنيسة وكان حتماً أيضاً أن تضحي الحرفية هي الأصل خاصة وأن اللاتينية باتت لغة
الانجيل ، وهكذا راح بتأثر للوغوس موصود من الأعراف التقنية والأدائية للغة المكتوبة ،
فالدلالة لها هوية قائمة على دال ومدلول . وإن تظاهرات هذا الدال والمدلول هي الحقل
الجمالي الذي ظلت الشكلائية ، منذ العصر الأرسطي (وتعاليمه البلاغية) الى عصر
البنية ، والسيميوطيقا ، وعلم اللسانيات تباشرو ، وتعنى أسسها به ..
ومع توغل المعرفة اللسانية في التجريد والتجريب ، ظل يطفو على الموج أدباء ،
وفلاسفة ومفكرون يسجلون اعتراضاتهم المبررة على منطق الحتمية الذي ساق به
اللوغوسنتريزم الفكر الانساني المعاصر ، في طريق سرايى لامينع شعري فيه ،
لقد كان هيدجر يحن الى عهود الشعرية الصافية تلك التي سبقت اللوغوس ،
والمعرفة المنطقية ، وسعى نيتشه بياس وخيبة الى استحداث ثغرة في سوراللوغوسنتريزم
الجامد ، المخدوع بمسلماته العقلية الباردة .. وسعى مالارمييه ، ورامبو ، ومونتريامو ،
وجويس وآخرون بأدبهم ، الى السباحة ضد التيار ورامبو انشاد أدب ملفوظ مكتوب ،
ومكتوب ملفوظ ... وفي المضمار الأكاديمي تتحدد اليوم نسبياً ، نزعة اختراق المشروطية
اللوغوسنترية على صعيدي علم اللسانيات ، والنفس ، في اتجاه يعيد الاعتبار للمعطى
الانساني ، بغض النظر عن مصدره ، وثقافته الأصل .. لكنها في الواقع مساع تظل
محكومة بالرؤية اللوغوسنترية التي باتت آثارها نافذة في اللغة ، وفي المفاهيم ، وفي
المنهج وفي الفكر على السواء ..

على أن ما ينبغي إثباته ، بعد هذا الاستقرار اليبستيمي الذي وجدنا الغرب
يواصف فيه جذور لوغوسه ، هو أن شبكة الانجاز المعرفي للوغوس ، والتميزة بالتجدد
، والتطور ، قد انتقلت من مرحلة تغليب الملفوظ على المكتوب ، الى مرحلة ترسيخ
سلطة المرئي ، من خلال ما يمكن تسميته بالفيزيو سنتريزم visieentrisme فاقا

عراضا ، أمام تنميط المتخيل الانساني بانجازاته الروحية ، والحدسية والمعرفية .
وتوسع من نفوذه .

لقد ترعرعت المدينة الغربية المعاصرة على ظهور المفهورين وبشرواتهم ، وكذلك
كانت معارفهم ، التي تعود في حيز كبير من أصولها الى الميثولوجيا الشرقية ،
والى تعاليم الكتب السماوية ، والى الثقافات القديمة ..

وإن مناهج التعليم المعاصرة في مختلف البلدان ، ومنظومات التشريع والفكر ،
والتكنولوجيا ، وسائر مجالات المعرفة لتنتج من المرجعية اللوغوسنترية الغربية ،
وتصب فيها بانجازاتها المعتمدة ، وغير المثمنة ، من هنا جاز لهذه البلاد أن تنادى بنظام
لوغوسنتري جديد يكفل لها حقها في الانتفاع بالمعرفة ، وفي تسديد خطاها ...

التواجه والتآلف :

ظهر سريعا التناغم الجدلي الجدالي بين مكونات الثقافتين العربية الاسلامية ،
واللوغوسنترية اذ حدث ما يشبه الحصر في المجال التشاقفي حيث استثنيت -الى حين-
مسألة العقيدة ، فلم تشملها المفاتحة الكلامية إلا في طور تال مرحلة الفتح العكسري .
أما في ماعداها من لوازم التعايش الاجتماعي ، والاندماجي المدني ذات الطبيعة
الثقافية والمسلكية ، فقد باشرتها التسديدات والتقييمات بشكل أعطى لعملية التكيف
الثقافي طابعها المدني ، الايجابي ، لقد جرى نوع من الاتفاق التلقائي ، العملي
والعاطفي بين الفاتحين والمفتوحة أوطانهم ، من حيث تبادل المصالح ، والمعارف تأسيسا
للمجتمع المنسجم المتناسك ، والمحكوم بقيم العقيدة الاسلامية . وكان طبيعيا أن تنشط
العملية البيداغوجية في الاوطان المفتوحة ، اذ كان تعليم العربية من المطامح التي
تحقق للمسلم ، وغير المسلم فهم العقيدة ، وامتلاك وسيلة الاندماج في ثقافة
المجتمع الجديد .

وكان على العرب المسلمين ، أينما حلوا ، أن يباشروا مهمة تعليم مبادئ العقيدة
واللسان للمجتمعات التي نزلوا بها ، وأن يتعلسوا منها في ذات الوقت لغاتها وآدابها ،
الأمر الذي تجسدت معه ظاهرة ثقافية ، كانت معادلتها قائمة على تمازج قيمي بين
تقاليد البادية ، ومبادئ الاسلام من جهة ، وبين آداب وأعراف البلاد المفتوحة ، من جهة

أخرى . فاللوعوس كما حملت آثاره الفئات المتنورة الرومية والفارسية والقبطية ممن أسلمت أو من التي اندمجت في البيئة الاسلامية ، قد وجد نفسه فجأة يكيف منظوره ، خاصة في الحقول الفكرية والمعرفية ذات الصلة بالمعتقد ، ليشكل رؤية جديدة ، لوعوسها اسلامي ايماني / غيبي ..

لقد وظفت الفئات الاسلامية المتنورة المعرفة اللوغوسنترية ، كمنهاج ، ومنطق ، في بناء نظرياتها ، خاصة وأن الممازجة بين الأخلاط البشرية والمدنية بما أفرزت من أعراض تفاعلية سلبية ، تجسدت في ماعرف بالشعوبية ، كان يقتضي اسناد المورث الشعري الخطابي بالحصافة العقلية المعلية من شأنه وتأسيس الكينونة المعرفية/ أو الثقافية على تحويليرئها من آثار الهجنة ، أو الانحلال ، في خضم جو المضاربة بالقيم وبالمقومات ، الذي ازدهر في مراحل التفاعل الحضاري تلك .

وينبغي أن نشير الى أن الجهد الأوفى في تحقيق مبادئ تلك التركيبية التي تزوج فيها المددان التراثيان ، المدد العربي الاسلامي ، بعقيدته الدينية ، وبمرصوداته من الاشعار والاعبار والقيم ، والمدد اللوعوسي بمنهجه الوضعي الجدلي ، وبرؤيته العقلانية ، وبقابليته على تمثيل الافتراضات واضفاء روح المنطق عليها .. ان هذا الجهد التشكيلي ، أو الابداعي ، إذا شئنا ، كان في جله من نصيب المسلمين الاعاجم ، اذ بفضل تفاعلهم العميق مع العقيدة الاسلامية انخرطوا في تمثيل قيمها ، وفي تلوين فرضياتها ، في عقلنة تصوراتها ، لقد عكسوا خلفياتهم الثقافية ، الفكرية على المادة المعرفية الحية ، التي جاءهم بها الفتح ، متجاوبين مع الروح العقلية التي كانت تصدر عنها الآيات ، والاحاديث المقدسة ، مكيفين الممارسات التفكيرية والتعليمية مع المنطق واللوعوس ، الامر الذي يسر على أهل العلم والمربين ، أن يشفقوا أنواع المعارف ، سواء فيما يتعلق باللسان وعلومه : النحو- الصرف-البلاغة الخ .. أو بعلوم الشرع فقه- كلام ، أو يغيرها من المواد ، والفنون ، والتأصيلات العلمية ، المعرفية ، وأن ينزعوا بها هذا المنزع التعليمي ، الديداكتيكي ، المعاياري ، أو المرجعي .

لقد كانت منطلقات اللوعوس ، كما رأينا ، تقوم على المشافهة ، وعلى الجدل المنطقي ، أي أنها كانت تجنح الى الفكر (التعليمي ، وتسمو بالعاطفة الشعرية عن

السقوط الغواني ، وتستخفب بالكتابة ، وبالمكتوب مالم يبررها الوازع التنويري ، العلمي ، والتوصيلي ، فالنفاذ الابلاغي ، والتبليغي يتأكد في الكلمة المنطوقة ، ولما كان اللوغوس يعطى الراحة للجدوى والفاعلية التي يكفلها الحضور ، أو المواجهة ، كان على الخطاب المكتوب أن يتحلى بالخصوصيات التوصيلية التي تحقق له الجدوى ... من هنا كان ذلك النزوع التفنيبي الذي اتسمت به معارف القدامى ، اذ شملت روح التعقيد كل مجالات المعرفة حتى مجال التفكير الفلسفي منها فليس الطرح الفلسفي الا ضربا من الاستخلاص العقلي للفرضيات التي يحصفها المنطق التأملى لدى المفكر ...

لذا فمظهرت منظومة المعارف ، ولا تزال ، في التراث اللوغوسنترى ، في صورة قيسية ، واكتسبت صفة المعيارية ، أو المرجعية المعرفية ، التي ظل الفكر يخرج في ضوئها انجازاته الفكرية ، والعلمية ..

ولقد تضاوت مبادئ اللوغوس في أعرافها هذه مع واقع المعرفة العربية اذ كانت معرفة شعرية ، كما رأينا ، فهي بذلك معرفة ترجع الصوت الملفوظ ، على الحرف / المكتوب أو الخبرة الحية المقولة ، أو المروية لأنها الوسيلة الابرز التي امكن للمجتمع الأمي أن يدرج فيها معارفه ؛ وحتى سيعم استخدام التقنية الخرفية بالصورة العلمية والتعليمية التي عرفتها مدينة بني أمية ، فان المحدث لم يفقد دوره في صنع المعرفة ، وترويجها ، على أن الكتابة قد اضطلعت بالاولوي ، أي بالمجال الديني ، ولم يستوعب الحرف المادة الأدبية في اطار شمولي ، كسابقه عليه تراث الجاحظ مثلا ، الا عبر ثورة التدوين التي انطوت بها صفحة الصفاء اللغوي ، وأقرت على ذلك النحو ، بتسدين المجتمع العربي ، اتساع نطاق الحضارة ، مع ما يتضمنه ذلك من تغيرات عززت قيمة المكتوب .

لقد رأينا ظهور نزعة نقدية تستخف الشعر ، من منظور ديني ، في حين الفينا الاجرائية التأويلية مع ابن عباس ومن احتذاء تفتح عملية واسعة لتوظيف التراث الشعري أساسا لجلسة من العلوم ، ستتأصل بها هوية مايمكن ان نسميه لوغوسنتريزم الاسلامي ...

واذا كان اللوغوس قد امتاز بالعقلنة ، والمنطق وسيلة للتأصيل المعرفي ، فان

الثقافة الشعرية قد بنت معرفتها على أساس شعوري... استبصاري، فوق عقلي، وهوما جعل بعض المتنورين الاسلاميين ينزعون إلى الرؤية الشعورية ، يسندون بها مرجحاتهم العقلية ، اعتقادا منهم بحدوى المازجة بين الشعوري والعقلي، خصوصا في أمور العقيدة ..

فحينما يجنح مفكر مثل الاشعري عن فلسفة الاعتزال، بمنزعهما العقلي فانه سيستجيب لضرب من اللوغوس الحدسي اذا صح القول ، سيجد فيه أهل السنة اطارا كلاميا لا يغدو معه للعقل قوة على إثناء المقول الديني، وفق محايثات القياس النمطية بل سيكون فيه للفرضية الدينية مدلولها المستقل، المسغني عن التسويغ ، حدسي نابع من روح فطرية سليمة، أصلتها البادية في الامة الأمية ، تأصلت بها لمعرفة العربية ، اكتسبت امتيازاتها وهو مانجد التنويه يترى به عند كثير من المفكرين القدامى ، خاصة منهم أولئك الذين كتب لهم أن يعيشوا أطوارا كان التفاعل الثقافي والمعرفي يعرف فيها عنفوانه .. ولنسمع إلى ابن المقفع وهو أحد ضحايا مضاعفات ذلك التفاعل الحضاري الذي عرفته مدينة الاسلام في القرن الثاني، كيف يقوم السجاياء العقلية والمعرفية العربية ..

«إن العرب ليس لها أول تؤمه ، ولا كتاب يدلها ، أهل بلد قفر ، ووحشة من الانس، احتاج كل واحد منهم في وحدته الى فكره ، ونظره ، وعقله ، وعلموا أن معاشهم من نبات الأرض ، فوسموا كل شيء بسمته إلى جنسه ، وعرفوا مصلحة ذلك في رطبهِ ويابسهِ ، وأوقاته وأزمنته، وما يصلح منه في الشاة والبعير ، ثم نظروا الى الزمان واختلافه، فجعلوه ربيعيا وصيفا وقيظيا وشتويا ، ثم علموا أن مشربهم من السماء ، فوضعوا لذلك الانواء، وعرفوا تغير الزمان ، فجعلوا لهم منازل من السنة ...

ليس لهم كلام إلا وهم يحاضون به على اصطناع المعروف ، ثم حفظ الجار ، وبذل المال، وابتناء المحامد ، كل واحد منهم يصيب ذلك بعقله ويستخرجه بفطنته وفكرته ، فلا يتعلمون ، ولا يتأدبون ، بل نحائز مؤدية وعقول عارفة ، فكَذلك قلت لكم أنهم أعقل الأمم لصحة الفطرة واعتداد البنية ، وصواب الفكر ، وذكاء الفهم» ففاعلية الفطرة السليمة، في تأثيل المعرفة ، هي مزية العربي ، الذي كان له في المحيط البدوي عاملا

مساعدا على اعتماد مسلك التجريب ، والاستقراء الفطن ، لتأصيل الخبرة ، وكان تفرقهم في الأرض ، وانعزال بعضهم عن بعض ، مدعاة لهذه الكدح الذهني الاختراعي الذي أجاب على الرغم من بدائيته ، وشروط الاهمية التي تحيط به ، عن متطلبات حياته الرعوية أو شبه الرعوية ، لذلك وجدنا التجارب بما فيها الحكمة وهي الوجه العقلي ضمنها ، تتمرر عبر نطاق منظومة الفنون الشفاهية ، التي كانت قوام أدبهم بسيولة ورواج يستجيبان لما تنطوي عليه النفس العربية من شغف بالمسلمات ..

« وكل شيء للعرب فانما هو بديهة وارتجال ، وكأنه الهام ، وليست هنالك معاناة ولا مكابدة ، ولا احالة فكرة ، ولا اسنعانة ، وانما هو ان يصرف وهمه إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام ، أو حين يمتح على رأس بئر ، أو يحدو ببعير ، أو عند المقارعة ، أو المناقلة ، أو عند صراع ، أو في حرف ، فما هو الا أن يصرف وهمه الى جملة المذهب ، وإلى العمود الذي اليه يقصد ، فتأتيه المعاني ارسالا ، وتنشال عليه الالفاظ انشبالا ، ثم لا يقيدده على نفسه ، ولا يدرسه أحدا من ولده »

ولو أننا قابلنا بين أطر المعرفة التي توفرت الامم المتحضرة في زمن الفتح ، بما فيها الأمة الأمية ، لوجدنا كما يبين النص الأنف أن البداة كانت مرتكز الخطاب المعرفي العربي ، اذا ان غياب الحرف ، جعل القابليات الذهنية تتأهب في شبه استنفار لاشعوري دائم ، محسبا للطوارئ ، التي كانت تجد في ظروف المعيشة القائمة على التنقل ، واللا استقرار علتها .

« فهذه الفرس ورسائلها وخطبها ، ومعانيها ، وهذه يونان ورسائلها ، وخطبها وعللها وحكمها وهذه كتبها في المنطق قد جعلتها الحكماء بما تعرف السقم من الصحة ، والخطأ من الصواب ، وهذه كتب الهند في حكمها ، وأسرارها ، وسيرها وعللها ، فمن قرأ هذه الكتب عرف غور تلك العقول ، وغرائب تلك الحكم » .

لقد قام هذا الخبر على منطق تصنيفي ، أثبت عبر تناظراته ، أنواع المعرفة التي كانت تمتاز بها كل أمة من تلك الامم الحية ، هذا الامتيازات الذي لا يعني أن التراث الفكري كان يوم ذاك خاضعا لضرب من التخصص النوعي ، الحركي ، الصارم ، الذي تمتنع معه المشاركة المعرفية بين تلك الامم ، اذ القصد أن هناك ظهورا أو اشتغالا

محسوسا في هذا المجال المعرفي أو ذاك، تميزت به هذه الامة أو تلك ، دون أن يكون ذلك معدما لوجود هذا الضرب من المعرفة عينه أو ما يمت اليه بصلة ، لذي غيرها من الأمم ولو شئنا توزيع الاصناف المعرفية على الامم في ضوء النص لتحصلنا على الجدول التالي :

الامة	امتيازها المعرفي	نمط حسب الاجناس المعرفية
الفرس	رسائلها - خطبها - الفاظها - معانيها	أدبي - بلاغي : ————— شعري
يونان	رسائلها - خطبها - عللها - حكمها في المطلق	أدبي - فكري / عقلي ————— فلسفي
الهند	كتب حكمها - أسرارها - سيرها ، عللها	فكري عقلي ————— فلسفي

ويمكن أن نستنتج من هذا التفكيك ، وجود ملامح فارقة بين معارف هذه الأمم ، الى جانب ماهناك من قواسم مشتركة على مستوى النجنيس المعرفي على الأقل ، فإذا كانت الخاصية الادبية هي الظاهرة المعرفية العامة لدى هذه الامم جميعا ، وهو أمر طبيعي ، لكون الحقل الادبي حقل انساني ، حتى انه ليجوز القول أن الإنسان هو الحيوان المبدع ، فاننا وجدنا الميزة العقلية أو الفلسفية كانت من نصيب أمتي اليونان، والهند اذهما أمتا التعليل، والحكمة ،أوهما أمتا الاشتغال العقلي المنهج .. على أن هذه الخصوصية يمكن أن تلمس لدى الفرس أيضا، إذ أن الدرس البلاغي، وتفكيك بنية الخطاب الى لفظ ، ومعنى، أو أن النظر الى المقول على أنه شكل ومضمون ، أو جمالية ، فكر، لهو طور تحليلي يدل على قيام فلسفة اجرائية ، نقدية على الاقل ..

ويبقى لنا فارق يمكن أن تتميز به أمة الهند ، هو الفارق الروحي الذي تحيل عليه دلالة --- أسرارها ،

فالتعاليم المعبدية الهندية بروحانياتها ، ورياضتها ، حفلت بالاسرار الروحية التي انطبعت تجلياتها في طقوس العبادة ، والفن بالخصوص ، كما أن هناك مائزا ثانيا تفيدنا به دلالة --- سيرها، إذ أن سيرة الانسان . حين تخلد ، فلكي تلهم الوازع الاخلاقي في الانسان ، ومن هنا يمكننا أن نقول إن المعرفة في القديم ، كانت بسبب

محدودية وسائط البث والتوصيل، تنزع بين الأمم هذا المنزع المرجعي الذي تباينت بموجبه بعض المحاصيل المعرفية عند الأمم، إذ أن المنتج المعرفي لم يكن يلقي الروح الفوري، والفعال، كي يحقق مشاعيته في عقول الناس، هو ما اتاح لمنجزات الأمم أن تحقق لها شبه توسيم معرفي يميزها عن الغير، حتى إذا تآتى لثقافة ما، أن تزواج ثقافة أوثقافات أخرى، حدث بينها التلاقح، والتفاعل تتولد عندئذ نتاج من المعرفة خليط، هجين. وسيرث، بطبيعة الحال، خصوصيات شروطه، على نحو من الانتخاب العضوي، والحيوي التأصيلي ...

مثلما حدث للمعرفة اللوغوسية في غشيانها لأرجاء من الشرق، وإفريقيا، بفعل التأثير المباشر وغير المباشر المادي، والأدبي، إذ طبعت ثقافة اللوغوس على نحو قليل أو كثير، الفكر التعليمي، المعرفي، وأورثته شيئاً من خصوصيتها المنطقية، بما في ذلك الثقافة الشعرية العربية، مع ما ساندتها من محمول العقيدة الإسلامية: لقد كان على تفاعل الروحيتين أن ينجب سلالة المعرفة الخصوصية، برجاجة ثقافية إسلامية، هي ما سيكون معرفة مركزية إسلامية بديلة للفكر الإغريقو-لاتيني الذي ظل الى ذلك العصر يهيمن، ويستوعب فكر وثقافات العالمين.

لا بد لنا الآن أن نستجلي الموصفات البارزة التي تميز الذهنية التوليدية العربية، تلك الذهنية التي صدرت عنها القيم المعرفية العربية، والتي حملت سماتها بكل تأكيد، لقد رأينا في نص ابن المقفع أن الشرط الارتجالي البداهي، المتمرس هو منطلق الفعل المعرفي العربي تأسيساً وتوصيلاً.

«ان العرب ليس لها أول تؤمه، ولا كتاب يدلها ..»

فالعמידية هنا تمس المرجعية ليس لها أول تؤمه — تحيل عليه.. وتمس الحرفية، بوصفها تقنية عقلية تستوعب المعرفة وتخزنها .. على أن هذا الإعدام للإحالة، وللوسيلة الحافظة، والناقلة، لا يعني تعطيل الفكر، أو انحباس الفاعلية المعرفية، ولكن يعني اقتضاء فواعل انتاجية أخرى، تنطلق بالشرط المعرفي، يحددها النص في

« .. فكره - ونظره - وعقله .. »

فهذه المعاني رغم تباينها التحديدي الا أنها تكتسب دلالة إيمائية مشتركة ، تفيد معنى الإدراك ، والاستيعاب الذهني الواعي .. فالعزلة والتوحد ، أو البداوة ، حرمت العربي من الإحالة ، والنقييد الحرفي ، ولكنها لم تحرمه من تسخير مداركه : فكره - نظره - وعقله - في صنع معرفته الشعورية ، وتوثيقها ، وذلك من خلال المباشرة الحية التي استحالت معطيات تجربتها ، في مداركهم ، إلى علم ، وتجريد ، وتعيين :

« .. علموا أن معاشهم من نبات الأرض ، فوسموا .. »

المنطق الذهني المنطق التجريدي
الإدراكسي التعييني

لقد تراكمت المعرفة لديهم عن طريق الاستكشاف الذاتي المبني على الملاحظة والنظر ، والوضع ، وكلها شروط اجرائية ينتظمها سياق التأثيل المعرفي الذي يستند على المواضع والتحديد الشفاهيين.

« ثم علموا أن مشروبهم من السماء ، فوضعوا لذلك الأنواء ، وعرفوا تغير الزمان فجعلوا له منازل من السنة .. »

فالعربي بشرطه البدوي ، يعد ، كما يعبر النص ، مثلاً جلياً للعصامية المعرفية ، إنه un super Autodidacte ، إذ أهله يبيته لأن يستوعب فرضيات الحياة والمعاش بما امتاز به من « صحة الفطرة ، واعتدال البنية ، وصواب الفكر ، وذكاء الفهم .. »

« كل واحد منهم يصيب ذلك بعقله ، ويستخرجه بفطنته ، وفكرته ، فلا يتعلمون ، ولا يتأدبون بل نحائز مؤدية و عقول عارفة . »

ويمكننا الآن إحصاء جملة المواصفات التي تميزت بها المعرفة العربية ، كما تحدت من خلال إقادات النصين اللذين أوردناهما سابقاً ..

فالنص الأول يقرر مايلي :

- انعدام الأوليية المعرفية لسدى العرب ، وكذلك الكتاب الموجه لهم ..
- انعزلوا ، فاستهدوا - كل على حدة - أفكارهم - ونظرمهم ، وعقولهم ..
- علموا - بالملاحظة ، وعرفوا بالنعود ، والتحرية - فوضعوا الحدود ، ووسموا الأشياء ..
- استوعبوا عناصر محيطهم وشروط معاشهم ، ووجودهم بتعقل الظواهر ، والتفطن

لمسبباتها ، مستخدمين الفكر الحدسي ، دون أن يكون لهم تعليم، ولا تربية مدنية ، شأن الأمم المتحضرة ، بل هي قابليات مهياة لاسترشاد بالاشارة ، والاستهداء، بالحس لصحة الفطرة وذكاء الفهم ،وصواب الفكر ..

وأما النص الثاني فإنه يقرر أن البديهية ، والارتجال هما أساس الاستجابة ، والتكيف ، والتعامل عند العربي ، فتمرسه الوجداني والفعلية اكتسبه هذه الطلاقة في مباشرة الوقائع ، والاحداث ، وجعل من خطابه مظهرا قوليا ، وجماليا لاتشرطه الصنعة، ولكن المقول يتأتي عفوا بحكم القابلية ،والتعود .. كما يقرر النص أيضا ، أمية العرب ،وبعدهم عن عرف التقييد (الكتابي) ..

إن مايمكن استخلاصه من هذا ، هو تميز العربي بعقلية شفووية ،عمقت في الفرد العربي ملكات البدهة ، والحكم العقلي الشعوري ، فكان الارتجال أو الوضع مجالا ابداعيا مناطا بالفرد ،وبالجماعات على سواء . فالفرد البدوي من خلال معطيات حياته، يغدو في ذات الوقت مؤسسة خلق ،وتوصيل وانتقاء ، وهي صفات تهيب العقل البشري لأن يتقبل مخاضات التمدن ،بلا كبير عناء ، وهو ما تحقق للعرب ، ما أن جاءهم القرآن ، اذ سرعان ما امتلكت به كتابها ،وحرفيتها ، وعقليتها المفكرة ، فالمنطق الشعري تفاعل مع المنطق القرآني وخرجا معا ليتلاقحا مع المنطق اللوغوسي ، عبر ملحمة الفتح الكبرى ..ولقد كان طبيعيا أن يرتقى القرآن بهذه القابلية العربية الاوتوداكتيكية لتستوعب المعرفة الانسانية كما ستنتهي اليها في مرحلة الفتح ومباشرة طورالعالمية . وكان المشغل المعرفي الذي تركز أول الامر على جمع المادة القرآنية ثم النبوية ، وجها متطورا باشرت به العقلية الأمية مرحلة تنويرية ، ربما كانت غاياتها العالمية الكامنة ، تغيب عن مسلمي تلك الحقبة .. وحين سيبادرالمجتمع البربري- وهو موطن اسلامي مفتوح ، وأمي الثقافة - من خلال متنوريه الاسلاميين ، الى وضع أول تفسير للقرآن فانما يعني ذلك أن هناك انغماسا معرفيا جديدا تهيباً للبشرية بمختلف تراتباتها الحضارية ،ووضع بين يديها من شروط التفعيل الفكري ، والعقلي ،ما سينهض بالقيمة المعرفية لديها ، تصورا ، وإدراكا ، وانجازا ، على نحو يتماشى وروح ذلك التفعيل : القرآن ..

وإن أهمية واقعة مثل هذه لنكمن فى تلك الاستجابة الحسوة التى تتلقى بها الشعوب والجماعات المعطى المعرفى ، حين نلمس فيه روح تتآلف مع ما يعتلج فى ضميرها من نزوعات للخير والسمو و الحياة الفاضلة .

لقد كانت الثقافة اللوغوسية ، بما مازحها من شرط دنى ، حاضرة فى المجتمع البربرى تحت الحكم الرومانى ، واستطاعت أن تبرز من خلال فكر نخبة كان رمزها القديس/ أو غسطين/ بيد أن الاكتشاف اللوغوسى ظل محدودا بمحدودية الثقافة اللاتينية، التى كانت ثقافة المستعمر ، لكن الفتح سدفع بالثقافة العربية الاسلامية فى الاوساط البربرية من خلال الدعوة ، والتلفين ، الامر الذى سيمكن العربية بوصفها لغة الدين الجديد، من أن تكون الحامل الرئيسى للمعرفة فى ثقافة المجتمع البربرى ، بكل ترسبات هذه الثقافة الوثنية ، واللوغوسية ، وغيرها، مضافا عليها روحا جديدة ستندمج بها فى المركزية المعرفية الاسلامية التى سيكون لوغوسترينيزم عالمى ، خلال عصور الازدهار الحضارى العربى الاسلامى.

لقد كان هذا شأن العربية حيث ما خحت ، اذا كان عليها أن تترشح فى أغلب البلاد المفتوحة إلى هذا الدور التنويرى الذى اكتسبت به صبغة الامتياز (فضلا عن الفداسة) ، والذى كان قبل الفتح ، من نصيب لغة اللوغوس، الاغريقية ، اللاتينية ، بل وحتى من نصيب تلك اللغات المحلية مثل السوربانية ، والآرامية ، والفهلوية ،والقبطية .. التى أهلها تبنيها للعقيدة المسيحية ، وللفكر الاغريقى (وهما عماد اللوغوس) أن تكون لغات حية ، ووسيطا مهسافى عمليات النقل المعرفى ، التى ستبشراه لعربية ، حين استدعوها الضرورة الحسوة الى الاغتناء المعرفى ، تحذيرا لصفة الامتياز ،وترسيخا للدور التنويرى الذى بات لها ، باعتبارها لغة المعرفانية الاسلامية الظاهرة على غيرها من لغات الوسيط ، بفعل راحة حضارتها ..

المنزلق اللوغوسي

كان على العربية أن تستوعب على مستوى التعبير ، والتمثيل ، الأحوال الاجتماعية والفكرية المستتبة في الاوساط المفتوحة ، اذ أن الفتح وضع العربية موضع المحاور لمذنبات مختلفة في وقت واحد ، وهو ماخرج بها من النطاق القومي البدوي ، الى نطاق العالمية . ذلك لأنها أضحت لغة التعبير والسيادة ، والمعاصرة . فالطوائف كانت تقبل على تعلمها لتتلقى قيمها و لتلقي اليها بقيمها أيضا . ،و مثلما ورث العرب الفاتحون هياكل الدول التي فتحوها ونظمها ، وأعرافها ، ورثت العربية المفاهيم ، والمعاني ، والتصورات التي كانت تشكل البنى الثقافية والمعرفية ، لتلك المجتمعات ..

وكان طبيعيا أن تفاعل العربية ، من حيث هي لغة العلم (الديني ، والمدني) مع المنظومات المعرفية التي كانت تحكم فكر وثقافة البلاد المفتوحة ... وخاصة منها (سوريا - مصر - العراق) فكان حتماً أن تتلاقى مع اللوغوسنترية التي كانت آثارها بادية في الشرط المعرفي ، لا هوتاً ، وفلسفة ، وأدب وحكمة ، وتعاليم ... ، كان طبيعياً أيضاً أن تتأثر ثقافة الشعر باللوغوسنترية ، ذلك لأن صلابة التأسيس المنطقي التي يمتاز بها الطرح الفكري اللوغوسنتري والاحالات المعرفية العتيدة التي كانت تسندها ، قياساً بالحدسية الشعرية العربية ، زيادة على الوجاهة المتزايدة التي مافتئ المدرسون والباحثون اللوغوسنتريون ، تراجمة وأطباء ، وكتابا يوطدون بها أركانهاكل ذلك كان يتجه بالبحث العلمي ، والتعليمي اتجاهاً لوغوسنترياً ، ظهرت بمقنضاه فنون أدبية ، وعلى رأسها النشر التعليمي والفني ، والفكري تحولاً بالذهنية الشعرية الوجدانية ، الى طور التعقل أو التفكير المنهجي .

وقد سلخت العربية أزمنة عدة في عملية التحصف العقلي ، والتجهز بالمادة المفاهيمية الواسعة ، من أجل أن يستوى الخطاب العربي ويتمهر في استيعاب المعطيات الفكرية والمنطقية ، والتوصيلية الجديدة ، وأن يؤديها على نحو ناضج .. وربما كانت هناك مجالات معرفية أبدت فيها العربية قدرة فورية على التكيف ، واكتسبت رهافة أودقة في تحديد الحدود ، وفي السك الاصطلاحي ، وفي ضبط التعابير والمعاني بصورة توسعت معها أفانين الخطاب العربي ، وتعددت مناحيه ... ولعل ذلك كان

في المجالات التعليمية أو الاستنباطية . أسبق..

وإذا كانت رسائل التوجيه التي كان الرسول (ص) ثم الخلفاء الراشدون من بعده، وبوجهونها إلى مرؤوسيهـم ، أو إلى القادة ، والمتعاملين السياسيين الأجانب ، وإلى وغيرهم ، تمثل مادة خطابية وسياسية تتعلق بشؤون الأمة ، وبفن التسيير ، تقدم بها نطاق اللغة والثقافة العربية نحو آفاق اجتماعية ومدنية جديدة ، فقد كان هذا التوسع لا يفتأ يخترق حدودا معرفية أخرى ، سواء في ما يتعلق بالمذنيات ، أو بالعقليات أو بغيرها... وستكون تجربة الكتاب والتراجمة حقلا مهما لاختبار طاقات العربية التمثيلية، وسيكون انتاجهم مددا يزدهر به النشر العربي ، هذا النشر الذي كان يحمل الاثر المعرفي اللوغوستري ، بطبيعة تفكير الكتاب أنفسهم ، كما ينعكس ذلك في أدب ابن المقفع ، وفي رسائل عبد الحميد الكاتب ، وفي صحيفة بشر بن المعتمر ، وفي آثار كثيرة كانت مادة تثقيفية للأمة ...

بل إن أدبا مثل أدب الجاحظ ليعد المنحى اللوغوستري جليا فيه ، إذا اعتبرنا الاطلاع البين لهذا الكاتب على الثقافات المدنية التي مازجت الثقافة العربية ، في عصري بني أمية وبني العباس ، وإنك لتجد المنزع السفسطائي ظاهرا في كثير من رسائله .. على الرغم من تأصل ثقافته التراثية ، الأدبية .

ولقد كنت طبيعة المتكلمين تعكس من خلال منهجها التفكيري ، تأثرا واضحا باللوغوستريزم إذ كان المنطق وسيلة مدافعة وبناء ، ينافح به هؤلاء عن قيم الهدم التي كان الوضعيون يتصدون بها للمقومات ..

بل إن المعتزلة أنفسهم ، وهم أصحاب المبدأ العقلي ، كانوا ، فيما يرى بعضهم طليعة واجهت بها السنة مخاطر الطعن التي كانت تتهدد الإسلام ، بصفته لوغوستريزم جديدا كما تصوره .

وإن المواجهة بين من سمو بالزنداقة ، وبين خصومهم من المنافحين عن العقيدة كانت تعكس من بعض الوجود ، المفاعلة السلبية بين اللوغوستريزم الوثني ، والمعرفة المركزية الإسلامية ، هذه المفاعلة التي سنجدها تأخذ وجهها توفيقا ، في سائر ما كان يتولد من فكرة ، وأدب ، وفنون ، فيما عبرت عنه الطبوع المعمارية ، والجمالية المختلفة ،

من أشكال تكاملت فيها عناصر النهج الحضارية للأمم الإسلامية ..
لقد ظل فن التجسيم مثلاً ، ملقى من المنظومة الاداعية الإسلامية ، ولم
يتعاطه الاداعيون التشكيليون الاسلاميون ، إلا بصورة انفرادية محدودة ، وذلك بفعل
تأثير فيه العقيدة ، الأمر الذي شكل محددًا فارقًا من محددات المعرفة المركزية
الإسلامية بابتدأ به ، على صعيد الاداعية ، اللوغوستريزم الوثنى ..
وإذا كان التوافق المعرفى بين اللوغوستريزمين قد تحقق على نحو إيجابى ، فى
آثار الفلاسفة المسلمين جملة ، فإنه قد يكون فى حفل الأدبية قد وجد فى فكر حازم
الفرطاجنى ، من خلال كتابه المنهاج ، إطاراً تمثلنا سعى فيه الى أن يسدّد الشعيرة
العربية ، بمنظار لوغوستريزى إغريقى ، متفاعل مع روح المعرفة المركزية الإسلامية كب
تمثلتها عقلية تلك العصور ..



إحالات :

- 1 - أبو حبان التوحيدي : الإمتاع و الموائسة دار موفه للنشر 1989 .
- 2 - ابن جنى : الخصائص ، دار الهدى للطباعة و النشر - بيروت - ط 2 ،
- 3 - ابو حامد الغزالي : معيار العلم ، دار الأندلس - بيروت - ط 3 ، 1981 .
- 4 - ارسطو طاليس : فن الشعر ، ترجمة عبد الرحمان بدوي ، دار الثقافة ، لبنان ، ط 3 ، 1973 .
- 5 - بلاشير : تاريخ الأدب العربي ، د. ابراهيم الكسلاني ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1988 .
- 6 - الجاحظ : الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، منشورات محمد الداية، بيروت ، ط 3 ، 1969 .
- 7 - د . جميل صليبة : من أفضاؤون إلى ابن سينا، دار الأندلس ، ط 3 ، 1939 .
- 8 - حسنى زينة - العقل عند المعتزلة، دار الآفاق الجديدة - بيروت - ط 1، 1978 .
- 9 - طه عبد الرحمن : نظام العالم العلى - التقنى - ط 3 ، 1983 .
- 10 - مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ، ترجمة - عبد الصابور شاهين - دار الفكر ط 3 1966 .
- 11 - الفارابى : كتاب تحصيل السعادة ، تحقيق - جعفر آل ياسن - دار الأندلس ، بيروت ، ط 3 ، 1983 .
- 12 - هاملطون جب : ترجمة د . احسان عباس وآخرين ، دراسات فى حضارة الإسلام، دار العلم للسلامين ، بيروت ، ط 3 ، 1979 .
- 13 - باقوت الحموي : معجم الأدياء ، دار احياء التراث العربى - بيروت - .
- 14 - J . leréde : A la recherche de la réalite perdue colloque de washington E : Albin michel S.A 1985 :
- 15 - J . Derrida : l'écriture et la difference , Seuil 1967
- 16 - M . Foucault : les mots et les choses, Gallimard , 1966

